المؤتمر التربوي الثالث: تجارب المعلمات والمعلمين... مكان مختلف ومكانة أخرى

وسيم الكردي

يضم هذا العدد بين دفتيه جميع عروض التجارب التي قدمت في المؤتمر الثالث لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي الذي انعقد في كانون الأول الماضي 2009؛ عروض قامت على تجارب حقيقية ومكابدات واقعية قدمت بشغف غير معهود، أقول «مكابدات» و«شغف» لأن من سمع المعلمات والمعلمين ورأى عروضهم، سيدرك بسهولة أن هؤلاء المعلمين والمعلمات يعرضون صورة من صور حياتهم المهنية والشخصية في آن معاً، بكل ما يضفرها من ضغوطات وتوترات، وبكل ما تحمله من ثقة وهدوء، إنهم يعرضون أمام حشد كبير من زملاء وزميلات لأول مرة، نعم لأول مرة، بكل ما يحيط المرة الأولى في العادة من توجس وخوف، ولكنك ستلمح أيضاً ثقتهم بما يقدمون وقناعتهم بما يفعلون، وستجد طوال الوقت تساؤلات تتخلل عروضهم وافتراضات يبثونها، وكأن هذه التجارب كما تقدم أجوبة على أمور، فإنها تصوغ أسئلة لأمور أخرى. ومن يسمع ويرى سيلحظ ما ءكابدوه ويكابدونه»، وسيلحظ أيضاً شغفهم بما يعملون وبما يعرضون؛ هذا الشغف المغلف بحرارة العرض وقلقه؛ إنهم يقدمون صوتهم بكل اختلاجاته؛ بما يحمله من وثوقية وشكوك، وبما فيه من تردد وحسم، وبما ينطوي عليه من عثرات وتوهجات . . . .

لقد اشتغلنا في المركز مع المعلمين كي يكون المؤتمر فضاء لهم بامتياز، وبكل ما فيه من إخفاقات وإحراز. تقول إحدى المعلمات المشاركات: «قبل موعد المؤتمر اعتقدت أنه مجرد مساحة يبث من خلالها كل مشارك تجربة قام بها، ليطّلع عليها المهتمون بالتجارب الجديدة، ويناقشوها ويستفيدوا منها، ولكن بعد أن خضت هذه التجربة، وقدّمت أول مشاركة لي في مؤتمر، شعرت بأن هذا المؤتمر بداية تغيير حقيقية في مجال التعليم، وخطوة أولى نحو التفكير وبشكل جديّ لتطوير أساليب غير تقليدية في تعليم طلابنا، الذين باتوا يشعرون بأنّ التعليم عبء ثقيل لا ضرورة له، كما أنه دعوة لإحياء التعليم الذي أصبح شبه ميت، فكل التجارب التي تم عرضها في المؤتمر تناولت أسلوباً جديداً لعرض المادة التعليمية، التي تعتبر الطالب عضواً فعالاً ومشاركاً فيها، بعد أن كان مجرّد متلقٍّ لا أكثر». ما تقوله هذه المعلمة في هذا السياق يتجاوز الحديث عن تجربتها ليغدو حديثاً عن تجارب المعلمين الآخرين والمعلمات الأخريات، هذه التجارب التي ستغدو ناقوساً يدق ليحيي تعليماً باتَ «شبه ميت» وفق تعبيرها. يقول معلم آخر: «اتصال واحد من المركز كان بمثابة انقلاب في حياتي، وتغير غيَّر مخطط، وطرح لم يكن في أنماط تفكيري. كانت كلمات تنطلق في سمعي من مرصد سماعة الهاتف، وكأنها تقول لي أيّها المعلم من هذه اللحظة بدأ التغير، واستعدْ للخروج من قيود القوة الخارجية؛ شماعة القوانين، والأنظمة التربوية. بدأت أسارع نفسي، بل تمنيت لو أن اليوم ساعة، والساعة دقيقة، هذه أول مشاركة لي في مؤتمر سيعبر عن ذاتي وعن بناء المعرفة للطلاب، فتصورت وتأملت، وفكرت كيف؟ وماذا؟ وهل أستطيع؟ فكتبت ورقتي، وكانت أفكار في عتمة الليل تقول لي إنك الآن تنتقل من القول والمشاهدة إلى الممارسة والتأمل، فهي ساعة الحرية، ولكن الأمر صعب، كيف ستواجه جمهور المؤتمر من معلمين ومثقفين وباحثين؟!».

ستجدون في ثنايا هذا العدد العديد من الانطباعات والآراء؛ سواء تلك التي بثها المعلمون في عروضهم أم تلك التي عبروا فيها عن مشاعرهم وآرائهم كانطباعات اتجاه مشاركتهم في هذه المؤتمر. ولعلني أقول، ودون تردد كثير، إن هذه الخطوة تجسد إنتاجاً لتحدٍّ كبير لكل ما يتعلق بالتعليم وأنظمته وتوجهاته وملامحه في شكلها وفي محتواها في بلادنا. إن هذه الأصوات التي ملأت فضاء المؤتمر، لم تملأه بالبكائيات أو التذمرات، ولم تملأ سماء المؤتمر بالأعذار والتبريرات، بل قدمت صوراً لما يمكن أن يكون عليه التعليم؛ سواء في فهم المنهاج المدرسي وإعادة إنتاج معانيه وفق رؤية تحاوره

فتتناغم معه حيناً وتتجاوزه أحياناً، أو في تقديم صياغات تعليمية وممارسات أسلوبية لم يألفها النظام التعليمي، تمثل بدائل لما هو قائم وما هو مطروح. وتعبر في الوقت نفسه عن رؤيتها النقدية لواقع التعليم في فلسطين، إنها رؤية تقوم على تقديم اقتراحات تعليمية ملهمة، ولم تقتصر على مجرد اعتراضات وحسب، وقد تناولت تلك الاقتراحات توجهات التعليم ورؤاه وأشكال تعليمه عبر ممارسات واقعية وفعلية جرت في المدرسة الفلسطينية، وحدثت في مدارس متفاوتة الإمكانات، ومن قبل معلمين ومعلمات مختلفين في الرؤية والخلفية، لكن جميعهم جمعهم الشغف كما جمعتهم المكابدة. إن الأهمية ستكون اليوم مضاعفة لهذه الأصوات وهذه التعبيرات في هذا الوقت بالذات، لأن الصوت النقدي لم يحدث في نظامنا التعليمي، وبات أكثر وضوحاً وحضوراً، وبالتالي فقد يسهم هذا الصوت في إحداث تحول نوعي في نوعية التعليم إنْ تركَّزَ كقوة معرفية واجتماعية، ولم تشتته المصالح الضيقة والأهواء. فنحن نرى اليوم أن الصوت النقدي لم يعد صوتاً محصوراً في ركن ضيق هنا أو هناك، بل بات يتزايد ويأخذ مكانته باطّراد، وبتنا نسمع أيضاً أصواتاً من داخل المؤسسة التعليمية الرسمية نفسها، ولم تعد مقتصرة على أصوات من داخل المؤسسة التعليمية المجتمعية فقط، وبغض النظر، الآن على الأقل، عن موجبات هذا النقد المؤسسي ودوافعه وغاياته؛ فهي متخالفة ومتضادة، لأن بعضها ينبني على نتائج فلسطين في الامتحانات الدولية والوطنية، وبعضها ينبني على تقديرات أيديولوجية مغلقة، وبعضها الآخر ينبني على طبيعة التعليم شكلاً ومحتوى، وما يمنحه للمتعلم من طاقة التعبير والتخيل والتكون الذاتي.

على أية حال، إن النقد الدائر الآن، والرغبة في إحداث تغيير نوعي في نظامنا التعليمي وطبيعته يشكّل فرصة حوارية رائعة، ينبغي أن تأخذ مداها وجديتها بغض النظر عن المنطلقات والمقاصد، وأن لا تكون مجرد فعل براني وشكلي لا يمس جوهر المسائل والقضايا التعليمية.

وفي هذا السياق تتعاظم أهمية أن يغدو صوت المعلمين واضحاً، وبيّناً، وجريئاً، وملهماً، وبخاصة أولئك المعلمين الذين يأخذون زمام مبادرات يتجاوزون فيها راهنهم المعرفي وممارساتهم الحالية، ويبدون تطلعات جديدة اتجاه عملهم المباشر أو اتجاه التعليم برمته. فقد حاولنا في هذا المؤتمر أن نُشرك عدداً كبيراً من المعلمات والمعلمين ذوي الخلفيات المتنوعة والمجالات المتعددة، ممن شرعوا في إحداث تغير في عملهم، وممن لهم تجربة معنا عبر السنوات القليلة الماضية. لقد أسس المؤتمر، في ظني، انطلاقة كي يكون صوت المعلمين، صوتاً حاضراً بوزنهم الحقيقي . . . وبمكانتهم الفعلية، ليس فيما يخص التعليم فقط، بل فيما يخص دورهم في المجتمع كفاعلين اجتماعيين أيضاً. ويأتي هذا المؤتمر استجابة فعلية لتحولات في نوعية المساهمة التي يقدمها معلمون ومعلمات لأنفسهم وتلاميذهم ومدارسهم ومجتمعاتهم، إن هذه المساهمات في عرضها تمكّن من مشاركة الآخرين وبها، وتمكّنهم من محاورتها.

وعلينا في هذا السياق أن ننتبه جيداً إلى أهمية أن يكون الفضاء الذي يعبر فيه المعلمون عن تجاربهم فضاءً مفتوحاً وحراً، يقابل تلك «الفضاءات المصطنعة» التي تستعمل معلمين وطلاباً كي يكونوا صوتها، عبر كونهم ظاهرياً «صوتهم»، علينا أن نحذر الوقوع في منزلق «استخدام المعلمين» بالمعنى الحرفي لتبرير «مشروعات ادّعائية ودعائية». أقول هذا الكلام لأن هناك موجة وراء موجة «تحتفي» بالمعلمين ودورهم! وبالطلاب وبتعلمهم! وأكثر ما أخشاه من وراء هذه الموجات المتلاحقة أن تتحول إلى عكس ما ينبغي لها أن تكون. . . . فقد كان صوت المعلم لسنوات خلت باهتاً، غائباً، مغيباً . . . عن المشاركة الفعلية، ومصادَراً من قبل باحثين وتربويين ورسمين يتناولون التعليم والمعلمين «بجرأة» لا نظير لها، وبالكاد نسمع صوتاً لمعلم يتحدث عن نفسه وتجربته وممارسته لمهنته وعمله. أما اليوم، فباتت هناك فضاءات تعبير حقيقية، إلى جانب «مساحات مفتعلة». وربما سيغدو الأمر مزعجاً إن اختلط الحابل بالنابل كما يقولون، ولكن لا بأس ليختلطا! فهذا سيفضي بالمقابل إلى خلق إمكانية تحاور جدي وعميق وذي تحديات متعددة الأبعاد، يتناول جميع المنظورات، ويرى الأمور من مختلف المواقع والمصالح، وهنا ينبغي علينا أن نشرع في إعادة التمييز بين ما هو «مفتعل» وما هو «حقيقي»، ليس بقصد التمايز وحسب، بل من أجل أن يكون الحوار التربوي حواراً مختلفاً، فلا يتركنا ضحية خديعة لقائم مكرس أو مستقبل مزخرف ومزركش بما يوحي بحداثته وقيمته وأثره . . . بل يدفعنا إلى أن نستكشف ونرى ما هو حقيقي وأصيل، وينم عن تجربة يتفاعل فيها المعلم مع ذاته ومع الآخرين، ولا يكون مجرد «ناقلة» برانية لفكرة أو أسلوب.

إن أهمية ما يجري اليوم، يقوم على أن للمعلمين وزناً بات الجميع يحسب حسابه، وهذا ليس أمراً جيداً فقط، بل ممتازاً، ولكن لن «تضيع الطاسة»، ولن «يختلط الزوان بالقمح»، مهما حاول البعض خلطه عامداً أو غير عامد؛ فهناك من يستدعي المعلم كي يقف على المنصة، ليقدم لنا «تجربة تعليمية»، وسنرى الغاية من وراء هذا «الاستدعاء»، فستتحول التجربة إلى شهادة؛ شهادة في حقيقتها ليست شهادة المعلم عن تجربته، بل هي شهادة أريد منها أن تكون إثباتاً على جدوى مشروع أو برنامج انخرط فيه المعلم، أو «أجبر على الانخراط»، إنها الشهادة «لنجاح البرنامج في تحقيق مخرجاته»، وهناك من بات لا يكتفي بالمعلم، بل أصبح يستدعي بعضاً من طلابه كي يشهدوا على حسن تدريسه، ومدى الفائدة التي حققوها، وبالتالي فهي شهادة للمعلم الذي أتقن صنعته في تطبيق ما تعلمه، وبذلك استحقت الشهادةُ لمن صمم البرنامج في الأصل. ما أود قوله هنا، إن هناك تجارب أصيلة ينبغي تشجيعها واستلهامها والاستعانة بها في الارتقاء بها، وقد رأينا هذه التجارب في منتديات ومؤتمرات عديدة أقامتها مؤسسات تربوية مختلفة، ولكن بالمقابل رأينا تلك التجارب الأخرى، التي استعملت المعلم وصوته لتبرير نجاحات وهمية، إن هناك «شهادات» و«شهادات، وكما قال غسان كنفاني ذات مرة في إحدى رواياته على لسان أم سعد «خيمة عن خيمة تفرق»، وفي حالتنا فـ«شهادة عن شهادة تفرق». إن شهادة المعلم حول نجاح عمله في تجربة ما لا يتأتى بالضرورة لأنها تحشد أدلة لتقول: «إنني قد أصبحت مبدعاً، أو تعلمت كذا وكذا، أو بدأت أغير في أساليبي» أو «لقد بدأت أنظر إلى طلابي نظرة مختلفة»، فقد يكون هذا صحيحاً، ولكنه لن يكون كافياً وحده دون محاورة التجربة في معناها الخاص والشخصي، وليس فيما يقال عنها وحسب، بل في ما تفعله في حقيقتها أيضاً من منظور صاحبها وعبر محاورتها مع الآخرين. لقد استمعت إلى «شهادات» معلمين وطلبة على مدى الأعوام الخمس الماضية، وقد تفاوتت الشهادات؛ فهناك تلك التي تمثل تكراراً أصم لما تم تلقينه أو نسخه واستنساخه، وتلك التي تحس بصدقيتها وحرارتها وخصوصيتها وشخصيتها، فتكشف أنها شهادة فعلية، وليست مجرد تكرار لعبارات ومفاهيم قد تم حشوها في أدمغة قائليها.

وفي كل الأحوال، يمكن القول وبثقة كبيرة إن هناك معلمين اليوم باتوا يؤسسون لانطلاقة تأخذ صوت المعلم بالاعتبار، ليس كجزء من «الزركشة التربوية» أو «ضرورات تقارير الإنجاز»، بل كواقع جديد أصيل وطموح. ويمكن أن نتلمس من هذه الانطلاقة أنها تقوم على فكرة تقدير المعلم لدوره ومكانته؛ ولكي يتحقق هذا الأمر، فينبغي أن يحس المعلم بأن له دوراً ذا أهمية مجتمعية ليس في القاموس الإنشائي الذي نردده عادة كببغاوات، بل في السياق الاجتماعي الواقعي الحقيقي، وأن يعيش هذا الدور، وهو رائياً لمعناه ومضفراً لمغازيه؛ وذلك بإعادة إنتاج المواقف والمعاني عبر مكابدات يومية يتخلق الشغف من بين ثناياها، والرغبة ليس في الاستمرار وحسب، بل في دفع التجربة إلى آفاق جديدة رحبة ومغايرة ومختلفة ومتنوعة، تصنع فرقاً يغدو مجالاً للتحاور وللإلهام أيضاً. إنها التجربة التي تتأسس على ما هو قائم لتجاوزه، تبني على ما تقوضه، تعبر رحلتها بما تحمله الرحلة من مغامرة واستكشاف وتساؤل وتردد وخوف ومجازفة واعتداد . . . . إنها التجربة، حين تكون حقيقية، نابضة، حيوية، متعثرة، متلكئة، متألقة، مترددة، محتارة، مخيفة، واثقة، منعشة، آسرة، متلعثمة. إنها تجربة إنسانية حقيقية «أثار هذا المؤتمر مشاعر متناقضة، بين الخوف والهيبة والتردد من جهة، والتحدي والتقدم وفرحة النجاح من جهة أخرى».

في الحياة هناك من يمنحون وظائفهم مكانتها، مهما كان الموقع، ومهما كانت الوظيفة، وهؤلاء هم من يكابدون ويتملكهم الشغف بعملهم وبقيمة ما ينتجون. وهناك من تمنحهم وظائفُهم «مكانَتهم»، وهنا سنكون إزاء مكانة فارغة، وكأن التمحور حول الذات أو الرياء الاجتماعي ومصالحه الباهتة هو الذي يموضعها، وفي سياقنا هذا فهناك معلمون تمنحهم «الوظيفةُ مكانتَهم»، وهناك معلمون ومعلمات يمنحون «الوظيفةَ مكانتَها»، وبهؤلاء يمكن للتعليم أن يغدو في مكان آخر وفي مكانة أخرى نتوق لكليهما؛ المكان والمكانة.